



الزائر للجرحى حيث وجدوا، يشعر بحجم المصاب، وكبر الكارثة، وعظم الجريمة التي يرتكبها هذا النظام العصابة، عصابة بشار ومن حوله من أكابر مجرميها، بحق الشعب السوري.

وهذه الحقيقة تمثل جانباً من جوانب المأساة، وشعبية من شعبها، لأن المأساة أكبر من قضية الجرحي، وأشمل من حصرها بمعاقين، وبعد العرض الموجز، الذي سوف أسطرها في هذه المقالة المتواضعة، على الباحث أن يقيس غيرها عليها، ويجمع شتات الكارثة من كل أطرافها، ليقف على المشهد كاملاً، وينطق الحكم على القضية.

وتبقى قضية المفهوم أعمق بكثير من منطق الجداول والإحصاء، لأنك تتعامل في قضية كهذه مع الإنسان كإنسان، وليس مع عمارة تبني، أو طريق يبعد، أو جسر ينشأ، هذا من جانب، وطبيعة النظام العصابة، وتعاطيه مع المسألة، يعطيه بعداً آخر فيما نحن بصدده تأكيداً.

وأنت تطوف على الجرحي والمعاقين، تجد صوراً يقشعر منها البدن، وتوقف شعر الرأس، تدمع العين، وتحزن القلب، وتزرع في النفس معاني الضرورة في وجوب التعااضد، وأهمية التعاون، للعمل بهذا الملف، بكل ما يتطلب من استحقاق، وبكل ما يلزم من جهد وجهاد.

(وتعاونوا على البر والتقوى) و (من لا يرحم لا يرحم).

هذا قطعت يده ورجله، وذاك بترت ساقه، وفي غرفة ترى مقطوع الرجليين، أو اليدين، أو ربما اجتمعت جميعاً في شخص واحد.

ترى من بين المعاقين، من أصيب بشلل رباعي، نتيجة شظية طائشة، من خلال تلك البراميل المتفجرة التي تقنفها طائرات النظام العصابة، على رؤوس الناس الآمنين في منازلهم، وكذلك ترى من أصيب بشلل نصفي، ومن كسر عموده الفقري، فقد الإحساس بأطرافه السفلية، أما من أصيب بالعمى، إذ فقد بصره، فحدث عن هذا ولا حرج، رأيت شاباً في عمر الورود، قد فقد بصره، يقلب أكفه، ناظراً بعين البصيرة إلى المستقبل الذي ينتظره.

أما من أصيب بالحرق الكامل أو الجزئي، فهذا أصبح شائعاً شيوعاً انعدام الخبز والمحروقات، والأكثر ألماً أن تشاهد هذا المشهد البئس قد حلّ بالنساء والأطفال، فما أصعب أن تحمل امرأة جريحة، طفلها المحروق، حقاً إن المصاب كبير، وبين الفينة والأخرى، وفي زحمة الصور المختلطة، ينادي أن فلاناً من الجرحى، قد ودع الحياة، ليدفن في مسجد، أو حديقة، أو حوش بيت، لأن الحصار من العصابات والشبيحة تمنع الناس من الوصول إلى المقابر، أو أن المقبرة ما عادت تسع جدداً، لأن طاقة الاستيعاب لها في المخطط البشري، كان أقلّ من الحاجة، ولا يعلم الغيب إلا الله.

كل هذا مع نقص كبير بالأطباء، وفقدان للأجهزة الطبية، وانعدام لبعض الأدوية، وقلة في الموجود منها وندرة، وقصف للمستشفيات، وتخرّب متعمد لمنظومة العمل الطبي، من قبل النظام العصابة الذي قرر أن يحرق البلد.

ورغم المأساة، بكل ما تحمل في طياتها، وأنت تزور الجرحى، وتتفقد المصابين، تقف على حقيقة مذلة، وهي أن هذا الشعب، صابر محتسب، يلهج بحمد الله على كل حال، فلا ترى التذمر، ولا التبرم، ولا الضجر، بل تلمس المعنيات العالية، والهمم الكبيرة، التي تطاول الجوزاء شموخاً ورفة، وترفعاً عن خلق السخط، وتعالياً على الجراح.

(عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له).
كثير منهم ما إن تعافى قليلاً، حتى يلتحق بصفوف الخادمين لهذا الشعب، في قضيته العادلة، حتى صار مألفاً أن تلق شاباً، وهو في الميدان، ليخبرك عن جسده وما حوى من شظايا، وما سكنت فيه من رصاصات، وما فيه من جراحات، يتلهف الشباب الجرحى للتمايل للشفاء، شوقاً للالتحاق بأبناء شعبيهم، ليقول أحدهم للطبيب: هل خروجي سيكون قريباً، أم أن قضيتي طويلة؟

فيقول له الطبيب: لم هذه العجلة؟

فيقول: شوقاً إلى لقاء الأحبة، ووقوفاً مع أبناء شعبي، الذين خذلوا ، فلا أقل من أن أكون بجانبهم، أحمي عرض سوريا، من شبيح مجرم، يريد انتهاك عرضها، أو لعله أستطيع تقديم رغيف خبز لجائع، من هذا الشعب الأبي الذي تعود أن تكون يده علياً.

إن من يزور الجرحى، ليواسيهم- وهذا ضروري ولازم- بعد أن يراهم يتعلّم منهم دروس الصمود، ويرجع المواسي موسياً نفسه ومؤنها، ولسان حاله يقول: هنا البطولة، هنا الاستعلاء على الجرح، هنا مدرسة عملية، على الأجيال أن تتعلم منها دروس الصبر والمصابر والمراقبة، وبناء شامخات المجد، وصناعة الحياة، على مناهج العدل والحرية والكرامة، وحقوق الإنسان.

ويا سبحان الله!!! كأنما عوض الله هذا الشعب الذي أغلقت مدارسه، وتعطلت معاهده، وذبح طلاب جامعاته، بهذه المدرسة العظيمة، والمحنة منحة، ونسأل الله العافية والفرج.
وبعد ذلك وأنت تقرأ هذا المشهد، تجزم بأن شعباً بهذه الروح العالية، والصمود الكبير لا يقهـر بإذن الله، ومنصور بعون الله.).
وبشر الصابرين).

وأنت تزور الجرحى، ترى روح التعاون والتآلف والإيثار، تلف المشهد، في إطاره العام، لتعكس لك حقيقة هذا الشعب، وتكشف لك معدنه النبيل، وخلقه الأصيل، الذي حاول النظام عبر خمسين عاماً، أن يمسخ هذا الشعب، ويبعده عن كل قيمة من قيم الترابط، من خلال مخابراته ومخبريه، وأجهزته الماسخة، وإعلامه المضلـل، وتشجيعه للفساد الذي ضرب أطنابه، بكل مرفق من مرافق الحياة، ومن نطق بكلمة إصلاح، أو أراد تطور الخير في المجتمع ليس له سوى القمع، وتمارس عليه أساليب إرهاب الدولة، بكل ما تحمل، من ويل وقهـر وثبور.

تسأل المراقب للمريض، من يكون لك هذا الذي ترافقه؟

ليقول لك، هذا ابن حارتي، لم يهـن علي أن يذهب إلى المستشفى وحده، ولا بد له من مرافق، فيتحمـل عناـء السـفر، وـمعـانـة

المريض، والصبر على متطلباته واحتياجاته، وما أدرك ما هي، وما تتطلب من صبر، وهمة عالية.

تسأل آخر نفس السؤال، فيجيبك: هذا أخي ابن أمي وأبي، ويقوم على خدمته، ويصبر على تنظيفه، ويحمل ما يخرج منه، برضى وصبر واحتساب.

رأيت شاباً يرافق شاباً أصيب بفقد البصر، ويطوف به من مكان آخر، ومن مدينة لأخرى، عليه يجد له ما يعيده بارقة أمل أخيه، ليستأنف الحياة، سليماً معافي، وأن لا يكون عالة على غيره، رأيته آخر مرة في إسطنبول، ليقول لي: أنا سأسافر إلى المدينة الفلانية، فقد جاء فريق من الأطباء إليها، لإجراء عمليات للعيون، ومنها زراعة العيون. هكذا قال وهكذا وصله الخبر. وإنني سوف أتبرع بإحدى عيني لأخي، عسى الله أن يرد له بعض بصره.

وصور كثيرة، ومشاهد عديدة، كلها تؤكد على هذه الروحية التعاونية، التي يواجه بها هذا الشعب محنته.

ومن ثم فإن هذا الواقع بما حمل، يرتب على الأمة واجبات كثيرة، ومهام جسمية، بدءاً من مؤسسات المعارضة، كالمجلس الوطني والائتلاف، مروراً بكل الجمعيات العاملة على الأرض، وانتهاء بكل أبناء هذه الأمة، على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، وجمعيات حقوق الإنسان، ومؤسسات العمل الخيري أن يضعوا هذا الملف، في الصف الأول بترتيب الأولويات، عناية ورعاية واهتمامًا عملياً، حتى نقوم بواجب الوقت تجاه هؤلاء المنكوبين، ولنرسم صورة المستقبل من خلال مناهج العمل لقادم الأيام في الذي سيترتب عليه هذا الأمر الجلل، من آثار وتداعيات، وما يتركه من ندبات لها استحقاقاتها، التي لا يجوز أن تغفل.

كما على العلماء أن يقوموا بواجب النصح في البذل والإنفاق، ويدذكروا الناس بضرورة التعاون في هذا الشأن، ويصدروا الفتاوی التي تغطي هذا الجانب، بشكل واضح وجلی وصریح، فالعلماء ورثة الأنبياء.

ويا أحرار العالم، ويا دعاة حقوق الإنسان، التاريخ لا يرحم، ويلزمكم أن تكونوا متناغمين مع ما تدعون إليه، وأن لا تكيلوا بأكثـر من مكـيـالـ، وأن تلتفتوا إلى قضية الشعب السوري، من خلال الرؤية بعينـينـ، لا بـعـيـنـ وـاحـدـةـ، فالاجـتـزـاءـ خـلـلـ فيـ منـاهـجـ الـبـحـثـ، وـسـقـوـطـ فيـ درـكـاتـ الـخـلـقـ.

وللأمانة نقول: نعم قدم من أبناء الشعب السوري كثيراً مما ينبغي أن يقدم، وكذلك مؤسسات المعارضة، وكثير من أبناء الأمة، بذلوا وتعاطفوا، وشعروا بالواجب، وأحسوا بإحساس الأخوة، ولكن الأمر أكبر مما قدم بكثير.

(ودرهم سبق ألف درهم) (واتقوا النار ولو يشق تمرة).

رابطة العلماء السوريين

المصادر: